فهمي جدعان

في الخلاص النهائي:
مقال في وعود الإسلاميين والعلمانيين والليبراليين

(عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧). ٤٠٤ ص.

فيصل درّاج(*)

ناقد أدبي.

ـ ١ ـ

انصرف د. فهمي جدعان، منذ عدة عقود، إلى تأمل الفكر الإسلامي، في علاقته بالأزمنة الحديثة، منتهياً إلى محصّلة فكرية متميّزة، لا يمكن النظر إلى الفكر العربي الراهن من دونها. أشهره، منذ البداية، إسهامه المهم: **أسس التقدم عند مفكّري الإسلام في الفكر العربي الحديث**، الذي طبع أكثر من مرة، واستفاد منه جملة من الباحثين. تجمع كتابته بعمق بين الموروث الإسلامي، والمنظور الإسلامي المستنير، فهو يقرأ الأفكار في نتائجها العملية، التي تنظر إلى تقدم المجتمع وارتقاء القيم الإنسانية.

أقام كتابه: **في الخلاص النهائي** على تصوّر حواري، يعترف بالأيديولوجيات جميعاً، ولا يدّعي احتكار الحقيقة. ولهذا أعطى الكتاب عنواناً ثانوياً: **مقال في وعود الإسلاميين والعلمانيين والليبراليين**، يقرأ الأفكار في ضوء الواقع العربي المعيش، مؤكداً العلاقة بين الأفكار المختلفة ووظيفتها الاجتماعية، ومؤكداً، أولاً، أن «كرامة الفكر، من دوره في إعطاء حلّ صحيح للقضايا العملية». ومع أنه مفكّر مسلم، وصريح في إسلامه، فهو يتعامل مع الإسلام كأيديولوجيا بين أيديولوجيات أخرى، ذلك أنه يمايز بين «النصّ في ذاته» وقراءاته المحتملة، وبين القراءة النظرية وما أفضت إليه على الصعيد العملي. ولعل هذه الموضوعية العالية هي التي تجعله يقول بـ «وعود فكرية مخفقة» تساوي، في التحديد الأخير، بين الإسلامي والعلماني والليبرالي، طالما أن هذه الأفكار جميعاً لم تفعل شيئاً كثيراً لصوغ مجتمع عربي حداثي، يجمع بين الديمقراطية والعقلانية والمساواة الاجتماعية و«الأصالة»، بل إن الركون إلى ما يُدعي بـ «الأصالة»، لا يحمل الكثير من المعنى، إلا إذا أدرج المجتمع العربي في غيره من المجتمعات الحديثة،

(*) البريد الإلكتروني: info@azminah.com.

قيماً وأفكاراً وممارسات، من دون نسيان ما يميّز هذا المجتمع، ثقافياً، من غيره. وفي الحالات جميعاً، هناك فرق بين الفكر ووعوده، وبين معنى الفكر ومآل وعوده. وهذا المآل المخفق للأفكار يقضي بتأمل جديد، ينطلق من الواقع المشخّص، لا من أنساق المفاهيم النظرية.

ـ ٢ ـ

يقرّر د. فهمي جدعان أن شكل الفكر من أشكال قراءاته، وأن القراءات جميعاً، مهما يكن الفكر الذي تنتمي إليه، يمكن أن تكون متصلّبة دوغمائية متكلّسة، أو ديمقراطية عادلة، تؤمن بالنسبي والحواري ورفض الإطلاقي. وبسبب ذلك، فإن صفة الأصولية قد تلحق بـ «الإسلامي»، الذي يكفّر غيره ويدّعي وحيداً امتلاك الحقيقة، بقدر ما يمكن أن تلحق بـ «العلماني»، الذي لا يعترف بغيره، ويرى في علمانيته حلاً مفرداً وحيداً لجميع أمراض المجتمع. ولهذا ينتقد د. جدعان العلمانية الإقصائية، ولا يكون إقصائياً، فهو يدرس كل علمانية في سياقها، ويرى السلبي والإيجابي في وجوهها، مستنكراً الفصل بين الدين والحياة العامة، وإزاحة المؤسسات والرموز الدينية من الحياة الاجتماعية. وهو لا ينطلق في موقفه من نظر ديني، وإن كان له نظره الديني الأكيد، بل من رؤية تعدّدية حوارية، غايتها إنسان متوازن في حاجاته المادية والمعنوية والروحية. وبسبب مبدأ الاعتراف المتبادل بين الأفكار المختلفة، يكون للدكتور جدعان دينه، الباحث عن خلاص الإنسان، وعلمانيّته أيضاً، ذلك أن العلمانية، كما يرى، هي «الحياد»، الذي يترجم ديمقراطية سوية، وتترجمه ديمقراطية، تعتنق التسامح، ولا تبشّر بالمتصلّب و«الأصولي».

يتكئ د. فهمي جدعان، في مقاله النظري والتربوي والسجالي المسؤول، على مفهوم التعدّد، الذي يحايث الأيديولوجيات المختلفة، ويصوّب كل مقاربة فكرية لا تقصد الخير والحقيقة. فلا وجود للعلمانية بصيغة المفرد، ولا وجود للديمقراطية في صيغة وحيدة، ذلك أن بعضها شكلاني يختلس من الإنسان أكثر مما يعطيه، ولا وجود لليبرالية في شكل نموذجي، لأن بعضها لا يميّز بين النعيم والجحيم. ولهذا يأخذ المؤلف، في موقفه من الليبرالية الجديدة، بموقف عالم الاجتماع الفرنسي الراحل بيير بورديو، الذي رأى فيها «داروينية محدثة»، تضع الفردي فوق الجماعي والمصلحة فوق القيم، وتحوّل «السوق» إلى كيان عاقل مديد جدير بالتقديس. وكما تكون الليبرالية، الموزّعة على أكثر من صيغة، تكون الحرية، التي هي سالبة حيناً، وإيجابية حيناً آخر. غير أن هذا النقد الذي يبدأ من المتعدّد ويعود إليه، لا يمنع د. جدعان، من الاعتراف بالحضارة الغربية في وجوهها الإيجابية، إذ يقول: «فللحضارة الغربية قيمها السامية، ومُثُلها الأخلاقية العليا، وذلك خلافاً لما تدّعيه جمهرة الدعاة الدينيين في المجتمعات العربية والإسلامية» (ص ٣٧٣)، مستعيداً، وهو النهضوي الإسلامي، ما قال به كثير من دعاة النهضة العربية، ومنهم طه حسين.

ـ ٣ ـ

إذا كانت التعدّدية تخترق الأيديولوجيات جميعاً، فهي تخترق، لزوماً، الأيديولوجيا الإسلامية، بصيغة الجمع،

القائمة اليوم في العالمين العربي والإسلامي. فـ «إسلام اليوم»، كما يقول جدعان، يتعدّد بتعدد تأويله، ويتوزّع على عقول مختلفة الاتجاهات، منتهياً، أيضاً، إلى سلفيات: السلفية التاريخية، والسلفية المحدثة، والسلفية المتصلبة... غير أن دور الإسلام، في معناه الحقيقي، يتمثل بنشر قيم العدالة والمساواة والتسامح وإعمال العقل، لا تغليب «السياسي» على القيمي، ولا الاندفاع إلى السلطة، من حيث هي هدف في ذاته، كما لو كان امتلاك السلطة قوام الإسلام وجوهره، ذلك أن الإسلام يبدأ من تهذيب الإنسان وإرشاده قبل أي شيء آخر. ولعل الحرص على إسلام منسجم مع دوره هو الذي يدفع الباحث إلى التمييز بين «إسلام التقابل والانفصال والصدام» وإسلام معتدل مغاير له، مؤكداً أن في الأول ما يضعف المجتمع، من ناحية، ويزيد الأنظمة المستبدة استبداداً، من ناحية ثانية.

فدور إسلام اليوم، على المستوى المحلي، نشر تربية توهن مواقع الاستبداد والفساد ودوره، وعلى المستوى الإعلامي، الحوار والاشتراك في الحضارة الإنسانية وتصويبها، بعيداً عن أيديولوجيا الكراهية والتكفير، وعن «أيديولوجيا الفرق»، التي تضع المسلمين في عالم، وما تبقّى في عالم آخر. ولأنه ينطلق من «اليوم»، موحّداً بين اللحظة التاريخية والإنتاج الفكري، يرفض د. جدعان الدعوات الإسلامية القائلة بإمكانية إعادة «إنتاج تجربة رسول الإسلام»، لأنها تفارق كل تجربة إنسانية، مثلما أنها غير قابلة للتكرار. يقول في هذا المجال: «إن اختيار سبيل «التقابل»، الذي تتبنّاه جماعات العنف، باجتهادات دينية «خلافية» ومهلكة، لا يمكن إلا أن يؤدي إلى نتائج كارثية للإسلام والمسلمين في كل مكان» (ص ٣٣٤)، ويقول أيضاً: «وإذا ما شاء أهل هذه «الرؤية» أن ينخرطوا في «الحياة العامة»، فإن عليهم، بالضرورة، أن يخضعوا، هم وغيرهم، لأحكام التعددية والديمقراطية... وفي حدود وحدة الأمة والسلام الاجتماعي، والحفاظ على المصالح والحقوق الأساسية للمواطنين، وعلى الحريات الأساسية التي يفرضها «النهج الديمقراطي»...» (ص ٣٤٢).

إن المطالبة بأن يقبل «إسلام اليوم» النهج الديمقراطي تصريحٌ بأن الإسلام أيديولوجيا بين أيديولوجيات «حداثية» أخرى، ما دامت الديمقراطية، ولو بشكل نسبي، مصطلحاً حديثاً. والواضح في خطاب جدعان دعوة صريحة إلى إصلاح الخطاب الإسلامي، أو ترهينه، ذلك أن «ترهين الموروث» يجعله جزءاً من ثقافة الحاضر، نظراً وعملاً. ومع أن صاحب **في الخلاص النهائي** يعرف معرفة دقيقة «أصول الخطاب الإسلامي»، فإن غايته المواءمة بين «الأصول» ومتطلّبات اليوم، مبتعداً عن الاجتهاد المدرسي المغلق الذي يرفع راية الأصول ولا يكترث بالراهن ومتطلبّاته.

ولعل هذا النظر، الذي يعرف التداخل بين الخطاب الديني والسياسة، فالنصّ المكتفي الذي يدّعي قراءة بريئة لا وجود له، هو الذي يجعل د. جدعان يرى في «الإسلام» أيديولوجيا من الأيديولوجيات، ويطالبها بالاعتراف بغيرها وبالتنافس الديمقراطي معها، ذلك أن «الدين» يصبح أيديولوجيا، حين يؤوّل سياسياً، ويحمل مقاصد سياسية.

ـ ٤ ـ

تطلّع كتاب **في الخلاص النهائي** إلى إسلام مرتجى، يتعيّن بغايات دنيوية، يعترف بغيره ويعترف غيره به، يبشّر بالخلاص، لا «بهلاك» مسوّغ بـ «فروض دينية» زائفة. هناك ملاحظتان لا بدّ منهما: أنجز د. جدعان في كتابه اجتهاداً نظرياً، يوحي أكثر مما يقرّر، ويحرّض على التفكير، ولا يدّعي جواباً أخيراً، مستبعداً الإطلاقية والأقوال الأخيرة. فعل ذلك مبرهناً عن شكل نبيه من «فن القول»، ينقد بعض المسلمين، ويدافع عن إسلامه، وينقد خصوم الإسلام، ولا يرى فيهم «كفّاراً». انتهى، في الحالين، إلى اجتهاد مسؤول ينأى عن السلفية، علمانية كانت أو إسلامية. السؤال الذي لا بدّ منه: ما هي السبل والوسائط والقوى الاجتماعية التي تنتج «إسلاماً» يحتفظ بأصوله، وينفتح على القيم الكونية؟ □

صدر حديثاً

الزراعة العربية وتحديات الأمن الغذائي حالة الجزائر

د. فوزية غربي

يتناول الكتاب «دور القطاع الزراعي في توفير الغذاء»، معتبراً أن قضية الأمن الغذائي بأبعادها السياسية والفنية والاقتصادية والاجتماعية تُعدّ من القضايا التي أصبحت تحظى باهتمام كبير على كافة المستويات العالمية. وانطلاقاً من هذا، يتساءل الكتاب عن حقيقة الأمن الغذائي في الوطن العربي، من خلال تشخيصه للحالة الجزائرية،في محاولة الإجابة عن سؤال مؤدّاه: هل الزراعة الجزائرية قادرة على تحقيق الاكتفاء الذاتي النسبي في المواد ذات الاستهلاك الواسع، بما يضمن لها أمناً غذائياً، وبالتالي استقلالاً اقتصادياً؟

ويصل الكتاب في النهاية إلى القول: إن تحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي على المستوى العربي العام، أمر غير مستحيل، إذا تضافرت جهود البلدان العربية، حقاً، فيما بينها.

٣٩٨ صفحة

الثمن: ١٧ دولاراً

أو ما يعادلها